

## عِلْمُ الدِّقَاعِيَّاتِ

المحاضرة ١٧: وَهْمٌ دِيكَارْت

أ.ر. سي. سبرول

في المُحَاوَرَةِ السَّابِقَةِ، اسْتَعْرَضْتُ الإِحْتِمَالَاتِ الأَرْبَعَةَ العَامَّةَ لِتَفْسِيرِ الوَاقِعِ الَّذِي نَرَاهُ، مُقْتَسِمًا قَلِيلًا مِنْ مَنْهَجِيَّةِ القُدَيْسِ أَوْعُسْطِينُوسِ القَدِيمَةِ فِي تَنَاوُلِ المَسْأَلَةِ. سَأَكْرُرُ هَذِهِ المَبَادِيءَ الأَرْبَعَةَ، وَأَتَنَاوَلُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهَا بِمَزِيدٍ مِنَ التَّفْصِيلِ. وَهِيَ كَالآتِي: "إِنْ كَانَ شَيْءٌ مَوْجُودًا - مِثْلَ هَذِهِ الطَّبْشُورَةِ أَوْ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ - فَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لَدَيْنَا أَرْبَعَةٌ تَفْسِيرَاتٍ مُحْتَمَلَةٍ لِذَلِكَ. الأَوَّلُ هُوَ أَنَّ هَذَا وَهْمٌ. وَالثَّانِي هُوَ أَنَّهُ خَلَقَ نَفْسَهُ. وَالثَّالِثُ هُوَ أَنَّهُ دَاتِي الوُجُودِ. وَالرَّابِعُ هُوَ أَنَّ شَيْئًا دَاتِي الوُجُودِ خَلَقَهُ". تِلْكَ كَانَتْ الإِحْتِمَالَاتِ الأَرْبَعَةَ.

قَدْ يَبْدُو لِلكَثِيرِينَ أَنَّ مَضِيعَةَ كَبِيرَةَ لِلوَفْتِ أَنْ نُحَاوِلَ اسْتِبْعَادَ الإِحْتِمَالِ الأَوَّلِ، وَهُوَ أَنَّ كُلَّ مَا نَظَنُّهُ مَوْجُودًا هُوَ مُجَرَّدٌ وَهْمٌ. لَكِنَّ فَلَاسِفَةً كَبَارًا عَبَّرَ التَّارِيخَ أَيَّدُوا تِلْكَ الفِكْرَةَ، وَهِيَ أَنَّ العَالَمَ وَكُلَّ مَا فِيهِ مُجَرَّدٌ حُلْمٌ، أَوْ وَهْمٌ، غَيْرٌ مَوْجُودٍ عَلَى الإِطْلَاقِ. إِذَنْ، كَيْ نُنَاقِشَ هَذَا المَبْدَأَ الأَوَّلَ، سَأَسْتَدْعِي أَوَّلَ شَاهِدٍ، وَهُوَ رَيْنِيه دِيكَارْت، أَبُو العُقْلَانِيَّةِ الحَدِيثَةِ، وَمُفَكِّرُ القَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ، الَّذِي كَانَ مُتَخَصِّصًا فِي الرِّيَاضِيَّاتِ أَيضًا، وَكَانَ شَدِيدَ القَلْقِ فِي أَيَّامِهِ حَيَالٌ طُهِورَ شَكْلِ جَدِيدٍ مِنَ الشُّكُوكِيَّةِ فِي غَرْبِ أوروْبَا، بَعْدَ الإِصْلَاحِ البُرُوتِسْتَانِيَّ لِلقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ، لِأَنَّهُ فِي أعْقَابِ الإِصْلَاحِ البُرُوتِسْتَانِيَّ، حَدَثَتْ أَرْمَةٌ سُلْطَةً.

فَقَبْلَ الإِصْلَاحِ، مِثْلًا فِي كَنِيسَةِ رُومَا القَوِيَّةِ، حِينَ كَانَ خِلَافٌ يَنْشُبُ بَيْنَ المَسِيحِيِّينَ، كَانُوا يَحْتَكِمُونَ إِلَى الكَنِيسَةِ لِثُصِيرِ حُكْمًا. وَمَتَى أَصْدَرَتِ الكَنِيسَةُ حُكْمًا، كَانَ هَذَا يَحْسِمُ الجَدَلَ، لِأَنَّ سُلْطَةَ الكَنِيسَةِ كَانَتْ تُحْسَبُ عَلَى أَقْلٍ تَقْدِيرٍ مُقَدَّسَةٍ، وَعَلَى أَكْبَرِ تَقْدِيرٍ مَعْصُومَةٍ مِنَ الخَطَأِ. لَكِنَّ بِسَبَبِ المَعَارِضَةِ لِسُلْطَةِ الكَنِيسَةِ الَّتِي صَاحَبَتِ الإِصْلَاحِ البُرُوتِسْتَانِيَّ، أَصْبَحَ السُّؤَالُ "كَيْفَ يُمَكِّنُ مَعْرِفَةَ أَيِّ شَيْءٍ عَنْ يَقِينٍ؟" يُمَثِّلُ مُشْكَلَةً خَطِيرَةً. وَلَمْ يَحْدُثِ انْهِيارٌ فَقَطْ لِسُلْطَةِ الكَنِيسَةِ، بَلْ أَيضًا لِلسُّلْطَةِ العِلْمِيَّةِ، لِأَنَّهُ بِالإِضَافَةِ إِلَى الإِصْلَاحِ الَّذِي حَدَثَ فِي القَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ، انْدَلَعَتْ فِي القَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ أَيضًا الثَّوْرَةُ الكُوبَرْنِيكِيَّةُ فِي عِلْمِ الفَلَكِ، الَّتِي سَبَبَتْ أَرْمَةً كَبِيرَةً فِي المَنْظُورِ عَنِ السُّلْطَةِ العِلْمِيَّةِ الَّذِي نَشَأَ فِي أعْقَابِ النِّظَامِ البَطْلَمِيَّ القَدِيمِ لِلكُوبَرْنِيكُوسِ هَذَا الإِسْتِفْرَارِ، وَأَثَارَ شَتَّى أَنْوَاعِ الشُّكُوكِ حَيَالِ جَدَارَةِ العِلْمِ بِالقَفَّةِ.

هَذَا الجَدَلَ حَوْلَ الثَّوْرَةِ الكُوبَرْنِيكِيَّةِ امْتَدَّ حَتَّى القَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ، حَيْثُ أَصْبَحَتْ حَدِيثَةُ جَالِيلِيُو بَارِزَةً فِي حَيَاةِ الكَنِيسَةِ، حِينَ قَامَ جَالِيلِيُو، بِاسْتِخْدَامِ تِلْسُكُوبِهِ، بِتَأْيِيدِ النِّظَرِيَّاتِ الحِسَابِيَّةِ لِعُلَمَاءِ الفَلَكِ فِي القَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ، عَبَّرَ تَوْجِيهِ التِّلْسُكُوبِ إِلَى السَّمَاءِ، وَإِثْبَاتِ صِحَّةِ نَظَرِيَّاتِ القَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ. إِذَنْ، نَشَأَتْ أَرْمَةٌ سُلْطَةً لَيْسَ فَقَطْ

في علم اللاهوت والفلسفة، بل في العلم أيضًا. وحاوَل ديكارت في بحثه الفلسفي أن يُعيد إرساء أساس من اليقينيّة فيما يتعلّق بالحقّ. وكان يَبْحَثُ عَمَّا دَعَاهُ بِالْأَفْكَارِ الْوَاضِحَةِ وَالْمُمَيَّزَةِ - أيّ الأفكار التي لا تقبل الشكّ، ولا يمكن رفضها إلا برفض المنطق في الوقت ذاته. وعندئذٍ، يمكن لهذه الأفكار أن تُشكّل أساسًا لإعادة بناء المعرفة، سواء في المجال العلميّ، أو اللاهوتيّ، أو الفلسفيّ.

وبالتالي، فالعملية التي اتبعتها ديكارت لبُلوغ اليقين هي اتباع خطّة من عدم اليقينيّة أو الشكوكيّة. فشرع في سعي حثيث وراء الشكوكيّة، حاوَل فيه التّشكيك في كلّ ما يمكن الشكّ فيه. بتعبير آخر، أراد أن يُعيد التّظنر في كلّ حقّ مُسلم به يتبنّاه البشر. فطرَح أسئلة، كالسؤال المعرفيّ التالي: "هل نعلم حقًا أن هذا صحيح؟"

أحبّ العودة أحيانًا إلى أصول الأشياء. وفي الواقع، كان كلُّ هدي من البحث الفلسفيّ هو العودة باستمرارٍ إلى الأصول الأساسيّة، والحقائق الأساسيّة. فعادةً أَعِدُّ قائمّة وأقول لتفسي: "ما الأمور العشرة التي أعلمها في يقين؟" ثمّ أدونها، وأخضعها لأدقّ نقدٍ ممكن، لِأَتَأَكَّدَ مِنْ أَنَّي لَا أَصَدِّقُهَا لِمَجْرَدِ أَنَّ شَخْصًا أَحْبَبَهُ عَلَّمَنِي إِيَّاهَا، أَوْ بِسَبَبِ مِيُولِي، أَوْ التّقليد أو التّفافه التي أنتمي إليها. فهدفي هو أن أعرف ذلك: "من أين أعلم أنّ تلك الأمور التي أعتبرها صحيحة هي صحيحة حقًا؟" وهذا واحد من أهمّ المبادئ لإحراز تقدّم كبير في أيّ نوع من أنواع المعرفة.

من أعظم المبادئ التي تُؤدّي إلى اكتشافاتٍ جديدةٍ هو مبدأ معارضة المسلّمات، لأنّه هكذا يتقدّم الفلاسفة، والموسيقيّون، والعلماء، حين يعارضون مسلّماتٍ وضعتها الأجيال السابّقة، وقيلوها دون فحص، وسلّموها من جيلٍ إلى آخر. فقد استمرّ النظام البطلميّ لأكثر من ألف سنة بسبب قبول الناس لتظريّاتٍ غيرٍ مثبتة. فيجب أن نفعل ذلك بأنفسنا، مُخضعين تفكيرنا لاستجوابٍ دقيق. رأيتم جميعًا ما يحدث في المحاكمات، حيث تسمعون أحدهم يعرض قضيتّه، فتسمعون جانبًا واحدًا من الأمر، فيبدو لكم منطقيًا. ثمّ تجلسون هناك وتؤمنون برؤوسكم قائلين: "نعم، نعم، نعم"، إلى أن يبدأ الاستجواب، ويبدأ الآخرون في طرح أسئلة حول الشّهادة التي سمعتموها. وبعد الإنهاء من الاستماع إلى الطّرفين، تكتشف أنّك لم تعد تعلم من يقول الصدق. ولذلك، يحمل هذا قيمةً كبيرةً.

لا يعني ذلك أن تستسلم للشكوكيّة. لكنّ هذا ما فعله ديكارت. قال: "سأشكّ في كلّ ما يمكنني الشكّ فيه. سأشكّ فيما أراه بعيني، وأسمعه بأذني، لأنني أدرك أنّه يمكن لحواشي أن تخدع". تحدّثنا عن ذلك، وأشرنا إلى مجذاف أوغسطينوس الذي حين تنظر في المياه يبدو لك مائلًا. وهذا ما فعله ديكارت. وقال: "ليس هذا فقط، لكنّ ربّما كان هذا العالم تحت سيطرة المخادع الأعظم، ذلك الكائن الشيطانيّ الكذاب، الذي يُقدّم لنا باستمرارٍ نظرةً خاطئة عن الواقع. فهو رئيس الأوهام. وهو يصنع هذه الأوهام أمامي باستمرارٍ ليخدعني. فكيف لي أن أعرف أنّ الواقع هو كما أراه؟"

أَتَذْكُرُونَ الْمَبَادِيَّ الْأَسَاسِيَّةَ الَّتِي ذَكَرْنَا فِي الْبِدَايَةِ؟ كَانَ أَحَدُهَا هُوَ الْمُؤْتَوِقِيَّةُ الْأَسَاسِيَّةُ لِلإِدْرَاكِ الْحَسَنِيِّ، لِأَنَّنا إِذَا لَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَثِقَ بِجَوَاسِنَا فِي أَبْسَطِ الْأُمُورِ، لَنْ نَسْتَطِيعَ الْخُرُوجَ خَارِجَ عُقُولِنَا، لِتَتَوَاصَلَ مَعَ الْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ. وَهَذَا مَا يُعْرَفُ بِأَزْمَةِ الدَّائِي-المَوْضُوعِيِّ. كَيْفَ أَعْلَمُ إِذَا كَانَ الْعَالَمُ الْمَوْضُوعِيُّ بِالْخَارِجِ هُوَ كَمَا أَرَاهُ تَمَامًا مِنْ مَنْظُورِي الدَّائِي؟ وَكَمَا ذَكَرْتُ، كَانَ دِيكَارْتٌ عَلَى وَعْيٍ شَدِيدٍ بِذَلِكَ، فَقَدَّمَ بَعْضَ الْإِحْتِمَالَاتِ الْمُسْتَحِيلَةِ، وَقَالَ: "رُبَّمَا لَيْسَ مَنْطِقِيًّا كَثِيرًا أَنْ نُفَكِّرَ فِي وُجُودِ مُحَادِجٍ عَظِيمٍ يُؤَلِّدُ هَذَا الْوَهْمَ الْكَبِيرَ بِالْخَارِجِ، لَكِنَّ هَذَا مُحْتَمَلٌ". وَقَالَ: "إِذَنْ، إِذَا كَانَ الْأَمْرُ مُحْتَمَلًا، فَلَا يُمَكِّنُنِي أَنْ أَعْلَمَ عَنْ يَقِينٍ إِنْ كَانَ الْوَاقِعُ كَمَا أَرَاهُ تَمَامًا. إِذَنْ، مُجَدَّدًا مَا الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ أَعْلَمَهُ فِي يَقِينٍ؟" عَلَى أَيِّ حَالٍ، بَعْدَمَا انْحَرَطَ فِي هَذِهِ الْعَمَلِيَّةِ الْمَوْسَعَةِ مِنَ الشَّكِّ، خَرَجَ بِشِعَارِهِ الْمَعْرُوفِ، الَّذِي اسْتُهْرَ بِهِ، وَهُوَ "Cogito ergo sum"، "أَنَا أَفَكِّرُ، إِذَنْ أَنَا مَوْجُودٌ". وَقَالَ: "مَهْمَا أَصْبَحْتُ شُكُوكِيًّا، الْأَمْرُ الْوَحِيدُ الَّذِي لَا يُمَكِّنُنِي الشَّكُّ فِيهِ، كُلَّمَا شَكَّكْتُ فِيمَا أَشُكُّ فِيهِ، هُوَ أَنَّنِي أَشُكُّ. لِأَنَّني إِذَا شَكَّكْتُ فِي كَوْنِي أَشُكُّ، فَسَيَلْزَمُ أَنْ أَشُكُّ فِي كَوْنِي أَشُكُّ. وَإِذَا شَكَّكْتُ فِي كَوْنِي أَشُكُّ، سَيَكُونُ عَلَيَّ أَنْ أَشُكُّ فِي شَيْءٍ فِي كَوْنِي أَشُكُّ. وَبِالنَّاتِي، لَا مَجَالَ لِلْهُرُوبِ مِنْ حَقِيقَةِ الشَّكِّ". فَقَدَ تَقُولُ: "أَشُكُّ فِي هَذَا الْأَمْرِ"، وَبِهَذَا تَكُونُ قَدْ أَنْبَتَ الْفِكْرَةَ نَفْسَهَا حَلَّ التَّرَاجُعِ. وَقَالَ: "الْأَمْرُ الْوَحِيدُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ هُوَ أَنَّنِي أَشُكُّ، لِأَنَّكَ إِذَا شَكَّكْتُ فِي ذَلِكَ، أَكُونُ قَدْ أَنْبَتُ فَرَضِيَّتِي". وَبِالنَّاتِي، تَوَصَّلَ إِلَى الْإِسْتِنْتِاجِ بِأَنَّ لَا شَكَّ فِي كَوْنِي أَشُكُّ.

ثُمَّ طَرَحَ هَذَا السُّؤَالَ: "مَا اللَّازِمُ لَوْجُودِ شَيْءٍ؟" وَقَالَ: "وُجُودُ الشَّكِّ يَسْتَلْزِمُ إِدْرَاكًا. فَالشَّكُّ يَسْتَلْزِمُ تَفْكِيرًا - تَفْكِيرًا وَاعِيًا - لِأَنَّ الشَّكَّ فِعْلٌ مِنْ أَفْعَالِ التَّفْكِيرِ. وَدُونَ تَفْكِيرٍ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُوْجَدَ شَيْءٌ. إِذَنْ، إِذَا كُنْتُ أَشُكُّ، فَمَاذَا سَأَعْلَمُ؟ أَنَّنِي أَفَكِّرُ. فَعَلَى الْأَقْل، أَنَا أَفَكِّرُ فِي كَوْنِي أَفَكِّرُ. وَمَاذَا إِذَا قُلْتُ إِنَّكَ لَا تُفَكِّرُ فِي كَوْنِي أَفَكِّرُ؟ حَسَنًا، كَيْ تَقُولَ إِنَّكَ لَا تُفَكِّرُ فِي كَوْنِي أَفَكِّرُ، لَا بُدَّ مِنْ أَنَّكَ فَكَّرْتَ. إِذَنْ، لَا يَسْعُنِي الْهُرُوبُ مِنْ حَقِيقَةِ أَنَّنِي أَفَكِّرُ، لِأَنَّ الشَّكَّ يَعْنِي التَّفْكِيرَ".

ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى الْفَرْضِيَّةِ الثَّالِيَةِ الْقَائِلَةِ: "كَمَا يَسْتَلْزِمُ الشَّكُّ وُجُودَ مُشَكِّكَ، وَكَمَا يَسْتَلْزِمُ التَّفْكِيرُ وُجُودَ مُفَكِّرٍ، هَكَذَا إِذَا كُنْتُ أَشُكُّ، يَجِبُ أَنْ أَسْتَنْتِجَ مَنْطِقِيًّا أَنَّنِي أَفَكِّرُ. وَإِذَا كُنْتُ أَفَكِّرُ، فَلَا بُدَّ مِنْ أَنَّنِي مَوْجُودٌ، لِأَنَّ مَا لَيْسَ مَوْجُودًا لَا يَقْدِرُ أَنْ يُفَكَّرَ. وَمَنْ لَا يَقْدِرُ أَنْ يُفَكَّرَ، لَا يَقْدِرُ أَنْ يَشُكَّ. وَبِمَا أَنَّهُ لَا شَكَّ فِي كَوْنِي أَشُكُّ، فَهَذَا يَعْنِي أَيضًا أَنَّنِي أَفَكِّرُ. وَإِذَا كُنْتُ أَفَكِّرُ، فَأَنَا مَوْجُودٌ أَيضًا". وَأَضَافَ: "وَبِهَذَا، أَتَوَصَّلُ إِلَى الْإِسْتِنْتِاجِ الثَّالِي: Cogito - أَنَا أَفَكِّرُ - Ergo - إِذَنْ - Sum - أَنَا مَوْجُودٌ".

الَّذِينَ لَا يَدْرُسُونَ الْفَلَسَفَةَ يَنْظُرُونَ إِلَى هَذِهِ الْعَمَلِيَّةِ الْمُطَوَّلَةِ الَّتِي خَاصَّهَا دِيكَارْتٌ وَيَقُولُونَ: "لِهَذَا السَّبَبِ الْفَلَسَفَةُ حَمَاقَةٌ كَبِيرَةٌ. كَيْفَ يُمَكِّنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَصْرِفَ كُلَّ هَذَا الْوَقْتِ، وَيَبْدُلَ كُلَّ هَذَا الْجُهْدِ، لِيَكْتَشِفَ مَا يَعْلَمُهُ أَيُّ شَخْصٍ

حَيٌّ وَيَقِظُ وَوَاعٍ بِالْفِعْلِ، وَهُوَ أَنَّهُ مَوْجُودٌ؟ فَلَا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ وُجُودَهُ. فَلَا أَحَدٌ يُؤْمِنُ حَقًّا بِأَنَّهُ مُجَرَّدُ نَجْمَةٍ تَظْهَرُ فِي حُلْمِ شَخْصٍ آخَرَ. لَكِنْ مُجَدِّدًا، تَذَكَّرُوا هَدَفَ دِيكَارْت. فَقَدْ كَانَ مُتَخَصِّصًا فِي الرِّيَاضِيَّاتِ، وَكَانَ يَبْحَثُ عَنِ اليَقِينِ، فِي المَجَالِ الفَلَسَفِيِّ، الَّذِي يُسَاوِي - مِنْ حَيْثُ القُوَّةُ والقُدْرَةُ عَلَى الإِفْنَاعِ بِالمَنْطِقِ - اليَقِينُ الَّذِي يُمَكِّنُ التَّوَصُّلَ إِلَيْهِ فِي الرِّيَاضِيَّاتِ. وَلِهَذَا خَاصَّ هَذِهِ العَمَلِيَّةَ، وَأَرَادَ التَّوَصُّلَ إِلَى مَبْدَأٍ أَوَّلِيٍّ، فَقَالَ: "حَتَّى يَتَسَيَّ لِي الإِخْتِلَاءُ بِدَاتِي، وَاسْتِخْدَامُ فَنِّ الإِسْتِدْلَالِ، دُونَ الإِعْتِمَادِ عَلَى حَوَاسِّي لِإِدْرَاكِ الحَقِّ. وَبِالتَّالِي، أبدأ بِمَعْرِفَةِ وَعْيِي الدَّائِيَّ".

ذَكَرْتُ البَارِحَةَ، أَوْ مُنذُ مُحَاضَرَتَيْنِ، حِينَ تَحَدَّثْنَا عَنِ الدَّفَاعِيَّاتِ الإِفْتِرَاضِيَّةِ، أَنَّهُ فِي الدَّفَاعِيَّاتِ الكَلَّاسِيكِيَّةِ، لَيْسَتْ نُقْطَةُ الإِنطِلَاقِ هِيَ الوَعْيُ بِاللَّهِ، لِأَنَّنا نَقُولُ إِنَّ اللهَ وَحْدَهُ هُوَ مَنْ يُمَكِّنُهُ أَنْ يَنْطَلِقَ مِنْ هُنَاكَ، بَلْ نُقْطَةُ الإِنطِلَاقِ المَعْرِفِيَّةُ لَدَى الدَّفَاعِيَّاتِ المَسِيحِيِّينَ لَا بَدَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ هِيَ الوَعْيُ الدَّائِيَّ، حَيْثُ تَنْطَلِقُ مِنْ عَقْلِكَ، لِأَنَّ هَذَا هُوَ العَقْلُ الوَحِيدُ المَتَّاحُ لَدَيْكَ. وَأَيُّ فِكْرٍ يَبْدَأُ مِنْ إِدْرَاكِ - إِدْرَاكِ وَاجٍ - لِتَفْكِيرِ المَرءِ أَوْ وُجُودِهِ. وَهَذَا مَا أَرَادَ دِيكَارْتُ قَوْلَهُ: "بَعْضُ النِّظَرِ عَمَّا هُوَ مَوْضِعُ شَكِّ، لَا شَكِّ فِي أَنِّي شَخْصٌ وَاجٍ بِدَاتِي وَمَوْجُودٌ. لَيْسَ عَلَيَّ النِّظَرُ إِلَى رَجُلِي لِأَعْلَمَ أَنِّي مَوْجُودٌ. فَلَسْتُ مُعْتَمِدًا عَلَى أَيِّ إِدْرَاكِ حَسِّي خَارِجِيٍّ. لَكِنِّي أَكْتَشِفُ ذَلِكَ فَقَطُّ مِنْ خِلَالِ عَمَلِيَّاتِ التَّفْكِيرِ العَقْلِيَّةِ الدَّاخِلِيَّةِ. فَلَسْتُ مُعْتَمِدًا عَلَى مُعْطِيَّاتٍ خَارِجِيَّةٍ". وَبِالتَّالِي، يَظَلُّ فِي اسْتِنْتِاجَاتِهِ دَاخِلَ إِطَارِ الإِسْتِنْتِاجِ المَنْطِقِيِّ.

هَذَا مُهِمٌّ لِأَنَّ دِيكَارْتُ تَخَلَّصَ بِذَلِكَ مِنَ الإِحْتِمَالِ الأَوَّلِ، وَهُوَ أَنَّ الوَاقِعَ وَهَمٌّ. رَبِّمَا تُوجَدُ بِالفِعْلِ أَوْهَامٌ فِي الوَاقِعِ، لَكِنْ لَوْ قُلْنَا إِنَّ الوَاقِعَ كُلَّهُ وَهَمٌّ، فَهَذَا مَعْنَاهُ أَنَّ لَا شَيْءَ مَوْجُودٌ، بِمَا فِي ذَلِكَ أَنَا نَفْسِي. وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ أَشَكَّ فِي وُجُودِي إِلا لِأُثْبِتَ بِهَذَا حَقِيقَةَ وُجُودِي. هَذِهِ هِيَ الفِكرَةُ الَّتِي حَاوَلَ الوُصُولَ إِلَيْهَا، وَهِيَ أَنَّ البَدِيلَ الأَوَّلَ مِنَ البَدَائِلِ الأَرْبَعَةِ يَجِبُ أَنْ يُسْتَبْعَدَ مِنْ كَوْنِهِ سَبَبًا كَافِيًا لِتَفْسِيرِ الكَوْنِ، لِأَنَّ حُجَّتَهُ تُثْبِتُ أَنَّ شَيْئًا مَا مَوْجُودٌ، وَهَذَا الشَّيْءُ المَوْجُودُ هُوَ وَعْيُهُ بِدَاتِهِ.

بِتَعْبِيرٍ آخَرَ، لَوْ كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الطَّبْشُورَةَ وَهَمٌّ، وَرَبِّمَا تَكُونُ كَذَلِكَ - لَمْ أَقُلْ إِنَّ هَذِهِ الطَّبْشُورَةَ تُثْبِتُ وُجُودَ اللهِ، بَلْ أَقُولُ إِنَّهُ إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الطَّبْشُورَةُ مَوْجُودَةً حَقًّا، فَهَذَا يُثْبِتُ وُجُودَ اللهِ. لَكِنَّ هَذِهِ الطَّبْشُورَةَ قَدْ تَكُونُ وَهَمًّا؛ وَبِالتَّالِي، يَجِبُ أَنْ أَتَّخِذَ مَنْحَى آخَرَ، وَأَقُولُ إِنَّهُ إِذَا كَانَ شَيْءٌ مَوْجُودًا، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ اللهُ مَوْجُودًا. وَبِذَلِكَ، لَنْ أَكُونَ مُنْحَصِرًا فِي هَذَا الحُزْبِ الصَّغِيرِ مِنَ الوَاقِعِ، أَيِّ فِي تِلْكَ الطَّبْشُورَةَ، لِأَنَّهَا قَدْ تَكُونُ وَهَمًّا. لَا أَظُنُّ ذَلِكَ، لَكِنَّ هَذَا مُمَكِّنٌ، نَظْرِيًّا. لَكِنَّ مَا يَنْبَغِي إِثْبَاتُهُ، إِذَا أَرَدْتُ لِإِظْهَارِي أَنْ يَنْجَحَ، هُوَ وُجُودُ شَيْءٍ مَا. وَهَذَا أَشْكُرُ دِيكَارْتُ عَلَى حَلِّ تِلْكَ المُشْكِلةِ بِإثْبَاتِ وُجُودِ دَاتِهِ.

وَمَا الْأُمُورُ الَّتِي افْتَرَضَهَا لِيَتَوَصَّلَ إِلَى اسْتِنْتَاجِهِ؟ فَثَمَّةٌ فَلَاسِفَةٌ لَا يُؤَافِقُونَ عَلَى فَرَضِيَّةِ cogito ergo sum، وَيُصِرُّونَ عَلَى عَدَمِ وُجُودِ أُسَاسٍ فِي الْوَاقِعِ لِيَتَوَصَّلَ إِلَى ذَلِكَ الْاسْتِنْتَاجِ. فَأَشَارُوا، مُحَقِّقِينَ، إِلَى حَدِّ مَا عَلَى الْأَقْلِّ، إِلَى وُجُودِ افْتِرَاضَاتٍ مُعَيَّنَةٍ طَرَحَهَا دِيكَارْتٌ طَوَالَ الْوَقْتِ، كَيْ يَتَوَصَّلَ إِلَى هَذَا الْاسْتِنْتَاجِ. فَطَرَحَ افْتِرَاضَيْنِ رَيْسِيَيْنِ لِيَتَوَصَّلَ إِلَى اسْتِنْتَاجِ أَنَّهُ لِأَنَّهُ يَشْكُ، فَلَا بُدَّ مِنْ أَنَّهُ يُفَكِّرُ، وَلِأَنَّهُ يُفَكِّرُ، فَلَا بُدَّ مِنْ أَنَّهُ مُوجُودٌ.

الِافْتِرَاضِ الْأَوَّلِ الَّذِي طَرَحَهُ بِوُضُوحٍ هُوَ الْمَبْدَأُ الْمَعْرِفِيُّ الْمُتَعَلِّقُ بِقَانُونِ عَدَمِ التَّنَاقُضِ. فَهُوَ يَفْتَرِضُ الْمَنْطِقَ، وَيَفْتَرِضُ الْعُقْلَانِيَّةَ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ لِأَنَّهُ يَقُولُ: "إِذَا كُنْتُ أَشْكُ، وَإِذَا كَانَ الشَّكُّ مُوجُودًا. إِذَا كُنْتُ أَشْكُ، وَإِذَا كُنْتُ أَشْكُ فِي كَوْنِي أَشْكُ، فَلَا بُدَّ أَنِّي أَشْكُ". هَذَا اسْتِنْتَاجٌ مَنْطِقِيٌّ مَبْنِيٌّ عَلَى قَانُونِ عَدَمِ التَّنَاقُضِ. وَيُمْكِنُ لِلشَّخْصِ الْوُجُودِيِّ غَيْرِ الْعُقْلَانِيِّ أَنْ يَقُولَ: "وَمَا الْمُسْكِكَةُ إِلَّا يَكُونُ الْأَمْرُ عُقْلَانِيًّا؟ فَهُوَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُوَاصِلَ الْعَيْشَ فِي وَهْمٍ، وَيُمْكِنُ لِلْمُسْكِكِينَ أَنْ يَشْكُوا دُونَ أَنْ يَشْكُوا". هَذَا مَا يَقُولُهُ غَيْرُ الْعُقْلَانِيِّينَ. لَكِنْ تَدَكَّرُوا أَنَّ الدَّفَاعِيَّاتِ الْكِلَاسِيكِيَّةَ تَحَاوَلَتْ فَقَطَّ أَنْ تُبَيِّنَ أَنَّ الْمَنْطِقَ يَسْتَلْزِمُ وُجُودَ كَائِنٍ أَرْزَلِيٍّ ذَاتِي الْوُجُودِ. فَإِذَا كَانَ أَحَدُهُمْ مُلْحِدًا وَقَالَ: "لَا أَوْ مِنْ بُوْجُودِ اللَّهِ لِأَنِّي لَا أَوْ مِنْ بِالْعُقْلَانِيَّةِ"، فَسَأَعِطِيهِ الْمَيْكْرُوفُونَ قَائِلًا: "رَجَاءً، أَخْبِرِ الْعَالَمَ كُلَّهُ بِأَنَّ بَدِيلَكَ لِلِإِيمَانِ بِوُجُودِ اللَّهِ مُنَافٍ لِلْعُقْلِ. وَقَرِّ عَلَيَّ عَنَاءً وَمَشَقَّةً إِثْبَاتِ ذَلِكَ. لَيْسَ عَلَيَّ أَنْ أُثْبِتَ ذَلِكَ إِذَا كُنْتُ تُقَرِّبُهُ". فَقَدَّ نَأَى هَوْلًا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ آيَةٍ مُنَاقَشَةٍ فِكْرِيَّةٍ بِاعْتِرَافِهِمْ بِأَنَّ فَرَضِيَّتَهُمْ غَيْرُ عُقْلَانِيَّةٍ. وَحَاوَلَ دِيكَارْتٌ أَنْ يَقُولَ إِنَّهُ كَمَا أَنَّ مَجَالَ الرِّيَاضِيَّاتِ مَنْطِقِيٌّ، وَكَمَا أَنَّ الْعِلْمَ السَّلِيمَ مَنْطِقِيٌّ، يَجِبُ عَلَى الْفَلَسَفَةِ السَّلِيمَةِ أَنْ تَكُونَ مَنْطِقِيَّةً. وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ عُقْلَانِيًّا، وَمَنْطِقِيًّا، لَنْ تَسْتَطِيعَ إِنْكَارَ أَنَّكَ كَيْ تَشْكُ، لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَشْكُ.

ثُمَّ الْفَرَضِيَّةُ الثَّانِيَّةُ الَّتِي طَرَحَهَا هِيَ الْقَانُونُ الثَّانِي الَّذِي تَحَدَّثْنَا عَنْهُ فِي بَدَايَةِ هَذِهِ السَّلْسِلَةِ، وَهُوَ قَانُونُ السَّبَبِيَّةِ. فَحِينَ قَالَ إِنَّ الشَّكَّ يَسْتَلْزِمُ وُجُودَ مُشْكِكٍ، قَصَدَ أَنَّ الشَّكَّ نَتِيجَةٌ تَسْتَلْزِمُ وُجُودَ سَبَبٍ يَسْبِقُهَا. وَلِذَلِكَ، قَالَ بَعْضُ نُقَادِ دِيكَارْتِ: "مَهَلًا، لَا يَثْبُتُ هَذَا أَنَّهُ مُوجُودٌ، لِأَنَّهُ يَفْتَرِضُ الْمَنْطِقَ، وَيَفْتَرِضُ السَّبَبِيَّةَ، وَنَحْنُ لَا نَقْبَلُ هَاتَيْنِ الْفَرَضِيَّتَيْنِ". وَجِبُّبٌ عَنِ ذَلِكَ وَنَقُولُ: "حَسَنًا، لَا بَأْسَ فِي رَغْبَتِكُمْ أَنْ تَكُونُوا غَيْرَ عُقْلَانِيِّينَ"، لِأَنَّنَا رَأَيْنَا، كَمَا تَدَكَّرُونَ، أَنَّ قَانُونَ السَّبَبِيَّةِ مُجَرَّدٌ لِامْتِدَادِ لِقَانُونِ عَدَمِ التَّنَاقُضِ، وَأَنَّ قَانُونَ السَّبَبِيَّةِ الْقَائِلُ إِنَّهُ لِكُلِّ نَتِيجَةٍ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يُوْجَدَ سَبَبٌ يَسْبِقُهَا، هُوَ حَقٌّ قَاطِعٌ. وَهُوَ قَاطِعٌ كَمَا أَنَّ اثْنَيْنِ زَائِدِ اثْنَيْنِ يُسَاوِي أَرْبَعَةً، لِأَنَّهُ صَحِيحٌ بِحُكْمِ تَعْرِيفِهِ. إِذَنْ، إِذَا افْتَرَضْنَا - تَدَكَّرُوا أَنِّي قُلْتُ فِي الْبَدَايَةِ إِيَّاكُمْ وَالتَّفَاوُضَ فِي قَانُونِ عَدَمِ التَّنَاقُضِ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّفَاوُضَ فِي قَانُونِ السَّبَبِيَّةِ، لِأَنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ، يَنْتَهِي بِكُمْ الْحَالُ إِلَى عَدَمِ الْعُقْلَانِيَّةِ. لَكِنْ إِذَا اسْتَخْدَمْتُمْ تِلْكَ الْمَبَادِيءَ الصَّرُورِيَّةَ لِخَوْضِ أَيِّ حَدِيثٍ مَفْهُومٍ فِي كُلِّ مِنَ الْعُلُومِ، وَالْفَلَسَفَةِ، وَعِلْمِ اللَّاهُوتِ، فَلَسْتُ أَظُنُّ أَنَّكُمْ سَتَنْجَحُونَ مِنَ الْإِفْلَاتِ مِنَ الْاسْتِنْتَاجِ الَّذِي تَوَصَّلَ إِلَيْهِ دِيكَارْتٌ، وَهُوَ أَنَّنَا نَسْتَطِيعُ، عَبْرَ مَنْطِقٍ لَا يُمْكِنُ مُقَاوَمَتُهُ، وَبِالتَّفَكِيرِ

الْمُنْطِقِيَّ وَحَدَهُ، التَّوَصَّلَ إِلَى الْإِسْتِنَاجِ بِأَنَّنا مَوْجُودُونَ، الْأَمْرُ الْكَافِي لِاسْتِبْعَادِ الْفَرْضِيَّةِ الْأُولَى الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْوَهْمِ مِنْ كَوْنِهَا بَدِيلًا يُمَكِّنُ أَنْ يُمَثَّلَ سَبَبًا كَافِيًا لَوْجُودِ الْعَالَمِ.

الدُّكْتُورُ أَرْ. سِي. سَنُزُولُ هُوَ مُؤَسَّسُ هَيْئَةِ خِدْمَاتِ لِيْجُونِيْرِ، وَكَانَ أَحَدَ رُعاةِ كَنِيسَةِ الْقِدِّيسِ أَنْدْرُو ( St. Andrews Chapel ) فِي مَدِينَةِ سَانْفُورْدِ بُولَايَةِ فُلُورِيدَا، كَمَا كَانَ أَوَّلَ رَئِيسِ لِكَلِّيَّةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِلِإِصْلَاحِ ( Reformation Bible College ) وَهُوَ مُؤَلِّفُ أَكْثَرِ مِنْ مِائَةِ كِتَابٍ، بِمَا فِي ذَلِكَ "كُنَّا لَاهَوْتِيُونَ" و"أَدَهْسَنِي الْأَلَمُ".